دوامة قلقه يسمع خطوات تدب على الارض « لم يستدر خاف ان يلتفت فتسمر مكانه . وحين هدأت القدمان على مقربة ، وهمست المرضة بما تحمل كان صدره ينوء بزفرات مكتومة تخلص منها بتنهدة طويلة ، وقبل ان يستدير تلفت ثانية صوب الكنيسة التي سيحمل ابنه اسم شفيعها .. » ص ٧٩ .

لا شك ان قصص المجموعة الاخيرة ، بشكل عام ، مادة ناضجة لكاتبة تشير كل حلقة من حلقاتها الى عمق تجربتها الفنية وتأصلها . بالرغم من ان القصص لم تذيل بتواريخها .

كما كانت سميرة عزام قديما مع ابطالها واحداثها ومواضيعها ، وبنية قصصها الفنية ، تبدو اليوم ايضا ، ولكن بثقة اكبر ، وبقدرة على تحريك اللغة ، أوسع وأعمق . كانت تعتمد قديما على الاشارات النفسية ، وعرض المواقف والمشاهد ، والتعليق عليها ، ولقد حاولت في مراحل لاحقة ان توازن بين عرض تلك المشاهد والمواقف وبين تدخلها هي . ولكنها تبدو اخيرا ، كما كانت — من حيث رؤيتها الانسانية والفنية معا — في حين استطاعت ان تنفصل بشكل واضح عن المشاهد والمواقف القصصية ، دون ان تدخل هي طرفا معلقا او طرفا هامشيا ، بل تتيح للقارىء ان يراقب هو ، وينفعل هو ، ويمتلىء هو . وكما كانت سميرة قديما كانت في الآخر من حيث نفسها القصير ، ومن حيث طبيعة اجوائها ، واختيار ابطالها ، فقصصها جميعا قصص قصيرة جدا ، تكاد تقتصر على مشاهد سريعة تحفظ لها توترها في « الآخر » بحيث يستحيل ثلثا القصة في الاول الى « مقدمة » مداعبة تهيىء لا تساؤلات القارىء فحسب ، بل عواطفه وانفعالاته جميعا . واشير الى هذه العواطف والانفعالات لان قصص سميرة ليست ذهنية ، وفكرية . انها تذكرنا دائما بعالم الكاتب العظيم تشيخوف . فأوساطها من الطبقات الشعبية : كالخدم ، والحراس ، والنداب في المآتم ، والعاطلين بلا عمل ، واذا ما كان بطلها من طبقات وسطى : فهو كهل يبحث عن زوجة قبل فوات الاوان ، او بعده ، او امرأة عجوز تفقد زوجها لتبقى مع الوحدة ، والخوف ، والفقر ... الخ . والذي يجمع بين كل هؤلاء هو عالم الخيبة والمرارة ، عالم البساطة التي تصل احيانا حد السذاجة ، عالم الطيبين الذين تعلمهم طيبتهم كيف يصلبون ثمنا لطيبتهم ، ويتعذبون جزاء لصدقهم الكبير . كثيرا ما تضع الكاتبة كل هؤلاء مع اجوائهم ، في أطر من السخرية المرة . فهناك الحارس الهرم الطيب الذي يحاول سرقة محروسه ، فقط من أجل ان لا يستغني هذا عنه بسبب الامن الذي سيوفره الشارع المبلط ، والاضواء الكهربائية المنتشرة . ولكن مع كل ذلك يستبدله صاحب البيت بحارس شاب ، لان الطرق الجديدة والاضواء والحارس العجوز لم يعودوا يكفون شر اللصوص. وكذلك الانسان الشارعي المشرد الذي اعتاد على ارتياد دكانة حلواني ، بحجة الشراء ، ليشبع مزاجه من تذوق تلك الاشكال الملونة . تقدمه القاصة بمنطق نفسي رائع : ففي احد الاعياد يدخل كعادته ويفاجأ بزحمة المحل ، وفي محاولته لتذوق أول الاصناف ، يلتفت اليه الحلواني — الذي يعرف كل نواياه سرا — بعطف كبير ليقدم اليه علبة من الحلوى هدية بالمناسبة «كنا نعلم انه لا يشتري، وانه لا يملك في جيبه ما يشتري به ، ولكن حبه الطفولي للحلوى كان لا يقاوم وكان دخوله للمحل وسيلة يذوق بها قطعة من الكعك او حبة من هذه الآلاف المكدسة .. » ، ولكن الرجل يفاجأ ويحرج لكنه لم ينصرف بل وضع العلبة جانبا وقال : « اريد اشياء اخرى .. علبة الشوكولا هذه الكبيرة و.. دزينتين من كعك جوز الهند ، وكيلو (هل تسجلين ذلك سجليه لئلا تنسي ..) او كيلو من هذا التوفي ، وو.. هذا الكباد المسكر .. اننا نحبه في البيت . هيئيها في ربطة واحدة مع علبة الهدية .. وحضري القائمة . سأمر خلال عودتي الى البيت وأحملها وادفع لكم .. اجل وادفع لكم .. » هكذا وينصرف وهو يتعثر بخجله الداخلي. هذا البطل نموذج لشخوص سميرة عزام ، البالغين حدا من الطموحات البسيطة والساذجة ، ومن طيبة القلب ، والعفوية الانسانية الفاجعة .

« وبالرغم من ان ابطالها لم يكونوا جميعا من الفلسطينيين فانهم مع ذلك يحملون في نفوسهم هما والما ووحدة قاتلة ، سواء كانوا رجالا ام نساء ام حتى مراهقين. بالرغم من الالم تترك سميرة عزام للامل نافذة مشرعة وأبوابا يتسرب منها النور بالرغم من كونها مغلقة .. » كما قالت عايدة مطرجي (راجع المصدر السابق) . وكما يصدق هذا القول على سميرة عزام في مجموعاتها الاربع القديمة يصدق على مجموعتها الاخيرة « العيد من النافذة الغربية » .

فوزي كريم